السـلاجقة

عنصر قوة فى الاسلام

[بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء] « حديث شريف »

الأستاذ حسن حبشى

ليس من شك فى أن ظهور السلاجقة على مسرح التاريخ يعد نقطة انتقال هامة فى التاريخ الإسلامى ، فقد نشأت عدة دويلات من هذه الزمرة الصغيرة التى خرجت من بخارى يقودها سلجوق ويدفعها حبها للمخاطرة . أما من الناحية الدينية فقد كانوا حماة الإسلام ، يذبون عن بيضته ، ويناضلون عنه ، ونبغ فيهم رجال نصروا الحنيفية السمحة ، كما ظهر فى أيامهم أئمة أدرجوا فى عداد المجتهدين ، وحسبنا أن نذكر من هؤلاء حجة الإسلام الغزالى . كتب الأستاذ هربرت لوى يقول : « إنه لا يعزى إليهم حسب ما منى به الصليبيون من فشل ذريع ، بل يرجع إليهم كذلك الأثر غير المباشر للشرق على الغرب ، ذلك الأثر الناجم عن الاختلاط الذى كان بين الفرنجة والمسلمين فى الحروب المقدسة ، وقد كان ظهور شأو السلاجقة مقويا للمذهب السنى ، كما يرجع إليهم الفضل فى إعادة الوحدة إلى الإمارات الإسلامية الممزقة ، كما أنهم وضعوا أسس الأمبراطورية العثمانية فى القسطنطينية[1] » .

هاجر سلجوق[2] من تركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، ويعزو الأستاذ هربرت ظهور سطوته إلى هذه الهجرة وإلى اعتناقه هو وقبيلته الإسلام . وأصبحوا من دعاة المذهب السنى على عكس الفرس الذين سايروا المذهب الشيعى[3] .

(١) Cambridge med. Hist. vol III p, 299—300

(٢) تزعم القصص الموضوعة أنه من نسل أفراسياب ملك تركستان ، والعدو الخراق للاسرة الفارسية الأولى (المرجع السابق ص ٣٠٠ بس ١٥ — ١٧) وإن كان الأستاذ توت فى (Empire & Papacy) يرى أن الشهرة التي يتمتع بها سلجوق يعتورها كثير من الخرافة .

(٣) لعل سائلا يسأل عن سر ذلك الاختلاف بين هذين الجنسين والذي أراه يبنى على ما ذهب إليه دوزي « من أنه لما كانت الفرس مفطورين على اعتبار ملوكهم من نسل الآلهة فقد تقبلوا هذا التوقير الوثنى — ظهر السلاجقة فى وقت كانت عوامل الضعف والانحطاط تعمل فى جسم الخلافة العباسية ، فقد أحاط الخلفاء العباسيون أنفسهم بالحرس التركى ، وذلك يرجع كما يذهب الأستاذ شفيق غربال بك[1] إلى موازنة النفوذ الفارسى الذى كان قد تغلغل فى جميع مصالح الدولة ، وقصة البرامكة — وهم من أشراف الفرس — وما نكبوا به ، أجلى برهان على ما وصلوا إليه من عليا المراتب فى الدولة « حتى غدوا الحكام الحقيقيين لها مما جعل الخليفة (هرون) يجمع العزم على التخلص من العائلة بأكملها[2] » .

لما تسلم بنو العباس أزمة الحكم ، لم يكن معنى ذلك استتباب الأحوال لهم ، فقد انقلب عليهم بنو عمهم العلويون الذين لولاهم لكان نجاح العباسيين ضئيلا[3] ، وكان بجانب هؤلاء الخوارج والمعتزلة والزيدية وغيرها من الفرق الإسلامية ، وكان الشيعة أعداء أقوياء الشكيمة ، وإن كان ينقصهم التنظيم . ودب الضعف فى الدولة العباسية ، فانسلخ منها كثير من الولايات الخاضعة لها « فكان قيام دولة الأدارسة فى مراكش (٧٨٨ م) على يد إدريس بن عبد الله ، والأغالبة فى تونس (٨٠٠ م) على يد إبراهيم بن الأغلب ، ودولتى الطولونيين والإخشيديين فى مصر . كان قيام هذه الأمارات خسارات فادحة للخلافة منيت بها فى نواحيها الغربية ، ولم يكن الشرق أوطد مركزاً من ذلك ، فقد كان من أثر السياسة التى سلكها الخليفة المأمون أن ظهرت فى فارس وبلاد ما وراء النهر روح قومية عظيمة ، كان من نتائجها قيام دويلات مثل الصفراوية (٨٦٧ — ٩٠٣ م) والسامانية (٨٧٤ — ٩٩٩) كما نشأ من الأخيرة الغزنويون ، لأن البتجين

— إلى على وذريته ، وكانوا يه ون الخضوع التام للامام الناجم من بيت على أعظم عمل يؤديه المرء منهم ويثاب عليه ، كما كان الامام عندهم كل شيء ، فكانوا يرونه الله صبغ فى شكل آدمى » راجع Dozy : Essai sur l'histoire de l'islamisme, p, 219 . وقد ذهب الأستاذ براون لما يقرب من هذا حين تكلم عن ميل الفرس للشيعة ، فذكر مسألة (الحق الالهي) وما كان لها من تأثير كبير فى تاريخ الفرس فى العصور الاسلامية ، وإن كانت ترجع إلى عهد الوثنية . راجع Browne : A Lit. Hist. of persia, vol I p. 130.

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ غربال ألقاها على طلبة السنة الثالثة بكلية الآداب فى الفصل الدراسى (١٩٣٦ — ٧ م)

(٢) R. Nicholson : A Lit Hist. of the Arabs p, 260

(٣) Herbest Lœwe in Cam. M. Hist. vol III p, 300

مؤسس هذه الأسرة الأخيرة كان مملوكا تركيا فى البلاط السامانى، كما أن سلطان آل بويه قد شل قوة الخلفاء وألزمهم قصورهم[١] » ومع أن هذه الدول اعترفت بالسلطان الدينى للخليفة إلا أن هذا الاعتراف كان إسميا . ويذكر السيد أمير على أن هذا الاعتراف كان لا كساب هاتيك الدول قوة ظاهرة ، وحتى تعتبر كل ثورة ضدها ثورة غير شرعية[٢] .

لكن متى بدأ الضعف فى الدولة ؟

التاريخ سلسلة متصلة الحلقات ، ومعنى لا نستطيع أن نحده . ولو فعلنا ذلك ، كان اعتمادنا عادة على الظواهر العامة البارزة التى يمتاز بها عهد من عهد .

وقد ذهب الأستاذ نيكلسون إلى تقسيم الخلافة العباسية قسمين : أحدهما عهد القوة ، ويبدأ باعتلائها العرش حتى حكم الواثق وهو قرن من الزمان . أما عهد التدهور ، فيبدأ بالمتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) ، ويمتاز بأنه عهد انحطاط سريع أعقبه سقوط هائل خابت كل الوسائل فى علاجه[٣] . أما أبو المحاسن[٤] فيذهب إلى أن تدهور الخلافة بدأ باعتلاء المستكفى عام ٩٠٢ م . وربما كانت علة هذا التدهور أيضا سعة الأقطار التى كانت تحت إمرة الخلافة العباسية ، إذ كانت دولا كبيرة متعددة لا يربطها بها غير دفعها الجزية[٥] .

والملاحظ فى الدولة العباسية أن السلطة — أيام قوتها — كانت فى يد الخليفة ، أما حيث بدأ الضعف يدب فى أوصالها ، فقد انتقلت هذه السلطة إلى أيدى الوزراء ، فأين وزراء المنصور[٦] والسفاح ، من هذه الوزارات الست[٧] فى عهد المأمون ؟

(١) Loc, Cit.

(٢) Cf, Sayed A. Ali : Short Hist. of the Saracens, p, 403.

(٣) نيكلسون : نفس المرجع ص ٢٥٧ (س ١٣ — ٢٢)

(٤) النجوم الزاهرة (طبعة جيذول) ج ٢ ص ١٢٤ ، ونيكلسون هامش رقم ١ ص ٢٥٧ .

(٥) T. Arnold Preaching of Islam, p, 275

(٦) قال الفخرى (الآداب السلطانية ص ١٠٦) « لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة ، لاستبداده واستغنائه برأيه وكفايته ، مع أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف ، فلا تظهر لهم أبهة ولا رونق »

(٧) الفخرى (الآداب السلطانية) ص ٢٠٢ — ٢٠٨

هـذه مقدمة وجيزة لتبيان حال الضعف التى وصلت إليها الدولة العباسية وكاد يودى بها لولا أن قيض الله لها (السلاجقة) ، فأنقذوا الإسلام « كما أن شخوصهم شطر الغرب أضاف عنصرا جديدا إلى الإسلام مكن المسلمين من الوقوف ضد الغزاة الأوربيين ، ووحدوا الإقليم الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند تحت زعامة واحدة وإن كان لفترة محدودة ، وردوا الصليبيين والبيزنطيين[١] ماذين فى حياة الخلافة العباسية التى ظلت قائمة حتى تخريب المغول لبغداد عام ١٢٥٨ م ، ويعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية فى مصر[٢] » .

من هذه العبارة نستدل على ما كان للسلاجقة من شأن عظيم فى تاريخ الإسلام والشرق عامة ، وبخاصة أنهم ظهروا فى وقت قد تمزقت فيه أوصال الخلافة أو كادت ، « وما كان من قبل مملكة متحدة تحت إمرة حاكم مسلم أصبح الآن عدة دويلات مبعثرة لا رابط بينها[٣] » ومما زاد فى تفرق بعضها عن بعض هذه المذاهب المختلفة ، فكان قيام السلاجقة رجحانا لكفة أهل السنة ولم يطل بهم الزمن حتى أسسوا ممالك سلجوقية خارج العراق كما فى الهند وتركيا .

وحد السلاجقة دويلات كثيرة منها فارس والعراق والشام وآسيا الصغرى ، فرفرف علم إسلامى واحد على آسيا من حدود أفغانستان الغربية حتى البحر الأبيض المتوسط[٤] .

عرف السلاجقة بالجرأة والقوة والحول[٥] ، وتعاور الحكم كثيرون من أمرائهم ، وحسبنا إشارة موجزة لبعضهم .

كان لسلجوق أربعة أبناء يدعى أحدهم إسرائيل ، ألقى القبض عليه السلطان محمود وأسره وظل فى أسره سبع سنوات[٦] ومات

(١) يقول لين بول فى (Moham. Dynasties, p, 150) « ولقد أحيوا عصبية المسلمين بعد ركودها ، وأوجدوا جيلا من المحاربين المسلمين المتعصبين الذين يرجع إليهم — أكثر من أى شىء آخر — ما منى به الصليبيون من إخفاق مهات عدة ، وهذا ما يجعل للسلاجقة المكانة الهامة فى التاريخ الاسلامى »

(٢) تاريخ كمبردج السابق (نفس المرجع والجزء والصفحة) .

(٣) S. Lame-Pool op. cit. p, 149

(٤) Camb. Med. Hist. III p, 150

(٥) الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق (طبعة مصر ١٣١٨هـ) ص ٥

(٦) Browne op. cit. vol II p, 167

فى أسره ، فأثار ذلك غضب أهله . ورأى ابنه قتلمش الخير فى الهرب ، ومن ثم اتخذ طريقه إلى بخارى حتى يكون بمنجاة من نقمة السلطان ، وهناك أثار حمية أقاربه للأخذ بثأر أبيه ، والثأر عند القبائل — كما يقول نيكلسون — مرض من أمراض الشرف هو أقرب إلى الجنون ، أورد الأستاذ براون[1] (عن الراوندى) أن هجرة قتلمش وأهله ، كانت فى أيام السلطان محمود وبأمره .

وأول من يهمنا أمرهم طغرل بك ، دخل هذا الزعيم السلجوقى بغداد فى ديسمبر عام ١٠٥٥ م ، « وأجلس على عرش وألبسوه لباس التشريف » . ومما زاد فى توثيق العلاقات بين طغرل وبين الخليفة القائم زواج الأخير من ابنة أخى الأول وتدعى خاتون خديجة ، وتذكر الأقاصيص أن هاتفا جاء لطغرل فى المنام يدعوه للخروج لغزو بلاد الموصل وديار بكر وسنجار ، فلبى الهاتف ثم عاد إلى بغداد فشكره الخليفة لنصرته الدين ، وسماه ملك المشرق والمغرب[2] .

لم يقنع طغرل بك بما نال من سلطة واسعة ، وما هو فيه من نعمة يتقلب فى مطارفها ، بل تاقت نفسه لتوثيق صلاته أكثر بالخليفة ، فهداه تفكيره إلى الزواج من ابنة السلطان[3] ، وتدعى سيدة النساء[4] ، ويظهر أن الخليفة لم يكن راضيا عن هذا الزواج ولعله كان يرى فى ذلك طمع طغرل فى أن يكون خليفة من بعده . ومن يدرى ؟ فلربما كان يريد الاستئثار بالحكم من دونه ، ذكر ابن الأثير أن الخليفة انزعج من ذلك وأرسل فى الجواب أبا محمد التميمى ، وأمره أن يستعفى فإن أعفى وإلا تمم الأمر[5] . وعقد له عليها ، لكن عاجله الأجل إذ توفى فى العام التالى فى مدينة طغرشت ، فرجعت ثانية إلى بغداد ، وقد وصفه ابن الأثير[6] بقوله : « إنه كان حليما عاقلا من أشد الناس احتمالا ، وأكثر كتمانا لسره . ظفر بملطفات كتبها بعض خواصه إلى الملك أبى كاليجار فلم يطلعه على ذلك ، ولا تغير عليه ، حتى أظهرها بعد مدة طويلة لغيره » .

جاء بعده ابن أخيه جغرى داود[1] ، ويدعى ألب أرسلان وقد حدث قبل توليته أن مال عميد الملك الكندرى لتولية أخيه سليمان بدلا منه ، غير أنه أخفق فى مسعاه مما أثار ضغينة ألب أرسلان ، فما كاد يتبوأ العرش حتى نفى الكندرى إلى مرو ، و يطل عليه الزمن فى السجن فقد لقى مصرعه وقتل بأمر ألب نفسه وهذا ما ذهب إليه الأستاذ براون[2] ، وكان مقتله كما يذكر ابن الأثير بعد سنة فى الاعتقال ، وفى ذلك يقول أحد الشعراء مخاطبا السلطان :

وعمك أدناه وأعلى محله ... وبوأه من ملكه كنفاً رحيبا
قضى كل مولى منكما حق عبده ... فخوله الدنيا وخولته العقبى[3]

واختير مكانه الأديب العالم « نظام الملك » . وأهم ما يذكر به عهد ألب أرسلان انتصاره على ملك الروم أرمانوس[4] Romanus IV ، كما انتصر على قتلمش ، وامتدت رقعة مملكته حتى ليقول ابن الأثير إن ملكه امتد من أقصى بلاد ما وراء النهر إلى أبعد أطراف الشام . ولقد أجل الأستاذ براون فى كتابه تاريخ الفرس الأدبى (ص ١٧٧) كل أعماله ، وهى جديرة بأن تجعله فى مصاف أعظم السلاطين . أما مصرعه فكان على يد مستحفظ قلعة يدعى يوسف الخوارزمى إذ ضربه بسكين فى خاصرته . وكان قد أخذ البيعة فى حياته لابنه السلطان ملك شاه وهو آخر السلاطين السلاجقة الذين ظلت أزمة الحكم فى يدهم ولم تتوزع الأهواء بينهم .

حسن حبشى

---

(١) Ibid, p 170

(٢) Ibid. p 172—173

(٣) وفى قول آخر « أخت الخليفة » وهذا ما ذهب إليه البندارى فى كتابه « زاحة الصدور » (راجع Browne Lit. Hist of Persia, p, 173 ، أما ابن الأثير فقد ذكر أنها ابنة الخليفة .

(٤) Rare accounts p 28

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢

(٦) شرحه ج ١٠ ص ١٠

(١) ذكر الأستاذ براون فى Rare acc. (No 1) أنه وجد فى المخطوطات التى عثر عليها أن هذا الاسم يكتب عادة جغرى ، ولكن فى الورقة ٤٥ كتب چغرى .

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia vol III p, 173—4.

(٣) ابن الأثير : ص ١٢

(٤) لانرى بأساً من إيراد ماذكره الأصفهانى (تاريخ آل سلجوق ص ٣٧ — ٤٢) فى هذا الصدد « قال ألب أنا أحتسب عند الله نفسى ، فإن سعدت بالشهادة فى حواصل الخضر من حواصل النسور والنمر وسبى ، وإن نصرت فما أسعدنى » ولما وقع أرمانوس فى يده لم يقتله لقوله « انظر عاقبة نبتى ، والعقوبة التى جرتها الى جريرتى » ولكن شعبه أبى أن يوليه عليه زاعماً أن المسيح ساخط عليه .